

## طفولتي في رمضان

كانت ليالى رمضان أجمل وأروع وأحب لحظات طفولتي . وبعد أربعين سنة أتاحت لى الظروف أن ألتقى ببعض أصدقاء تلك المرحلة الجميلة من العمر ، ورحنا نتحدث عن ذكرياتنا وما تحتوى عليه من شخصيات وأماكن ومواقف ، فوجدتهم مثلى تماما يعتبرون أنهم لم يشعروا بعد ذلك فى حياتهم — التى تشعبت بها الدروب — بمثل جمال تلك الفترة الطفولية البريئة . لماذا ؟ لأننا فى تلك المرحلة كنا نشبه حبات المذى المتساقطة من السماء فتتلقفها على الفور أوراق الشجر ، وتحفظها بالتالى من الوقوع على الأرض ، المليئة بالتراب والطين والملوثات ..

\*\*

فى تلك الفترة كان ارتباطنا ببعض — نحن الأطفال — أقوى مما تتصوره عائلتنا . فعلى الرغم من الأوامر المشددة التى كانت تلقى إلينا بعدم تجاوز مدة معينة فى اللعب مع بعضنا ، كنا نتجاوزها غير عابئين بالعقاب الذى كان يبدأ باللوم ويصل لقطع المصروف ، وينتهى أحيانا بالضرب . والذى لا يعلمه الكبار عن حياة الأطفال أن هؤلاء لهم عالمهم الخاص ، الذى ينتظمون فيه حسب أعمارهم وكفاءاتهم ، وأنهم يقسمون الألعاب فيما بينهم تماما كما يقسم الكبار الأعمال بينهم ، وأنهم يحترمون نظامهم الخاص بهم احتراماً يفوق احترام الكبار للقانون . ثم الأهم من ذلك كله ، أن رابطة الحب التى تجمع أولئك الأطفال تتميز بعدة سمات أهمها العمق ، والمتفانى ، والقبول الكامل بالمتضحية من أجل الآخرين ..

\*\*

عالم الطفولة يحتوى أيضا على منغصات . فهناك التنافس الذى يصل إلى حد الشجار ، وهناك الحسد الذى يتجاوز نطاقه النفسى ليتحول إلى الإيذاء البدنى . وكثيرا ما كسر بعضنا لعب بعض ، أو مزق أحدها ملابس غيره لأنها كانت أفضل من ملابسه . وهناك المقابل التى كانت أحيانا تتجاوز الحدود فتستدعى تدخل الكبار ..

\*\*

ومع ذلك كله ، تبقى ليالى رمضان هى أروع إطار كانت تتحرك فيه طفولتنا : الفوانيس ، ولعب كرة الشراب ، والمسابقات التى كانت تشتمل على إلقاء النكت ، ومحاكاة المطربين ، وحل المفازير ، ثم الأمانى التى لم تكن لها حدود : أنا أريد أن أكون ضابطا ، وهذا يريد أن يكون مهندسا ، وذلك يرغب فى أن يكون من رجال الأعمال . وأتعجب الآن ، لماذا لم يرغب أحدها أن يكون مدرسا ؟! ربما لأننا كنا نرى ونلاحظ ما يعانىه المدرسون معنا ، وإلى أى مدى كنا ذرهمهم ولما نتركهم إلما وهم ساخطون علينا .. لهذا أدركنا عندما كبرنا لماذا وصف أحمد شوقى المدرس بأنه يكاد أن يكون رسولا ، بمعنى أنه يتحمل ردالمات التلاميذ كما تحمل الأنبياء والمرسل عليهم السلام سخافات أقوامهم وهم يدعوهم للهداية .

\*\*

ومما أذكره من طفولتي فى رمضان أن الحب الأول ، وهو الأعمق رسوخا فى القلب ، قد بدأ وتطور خلال هذا الشهر الكريم . وقد كان لكل فتى منا فتاة يحبها ، ويفخر بين أصحابه بجمالها ورشاققتها . وكانت اللقاءات التى تجمعنا تسودها الألفة وروح المودة ، وكثير ما كانت الفتاة تطلب من رفيقها أن يصحبها لشراء بعض حاجيات منزلها ، فيسرع إلى الذهاب معها ، محاطا بنظرات الغيرة من باقى الصحاب !

\*\*

وعموما ، فقد كانت طفولتي فى رمضان من أجمل لحظات عمري على الإطلاق ، كما كانت كذلك بالنسبة لجميع أصدقائى الذين التقيت بهم مؤخرا ، وأجمعوا كلهم على ذلك . فهل هى الآن بالنسبة لأطفال اليوم ؟ .. كنت أتمنى أن تكون كذلك .

